سينما الأعوام العشرة العربية

النقد مطلوبٌ لفصل الحنطة عن الزؤان

مرّت عشرة أعوام على اندلاع الثورات في العالم العربي، وعلى بدء اشتغالات سينمائية مختلفة إلى حدّ التناقض، ما بات يتطلّب غربلة نقدية

نديم جرجوره

أسابيع قليلة تفصل بين اشتعال النار في جسد التونسي محمد البوعزيزي (17 ديسمبر/ كانون الأول 2010)، وتنحّي حسني مبارك عن الرئاسة المصرية (11 فبراير/ شباط 2011). أسابيع تشهد حراكاً شعبياً، يركن إلى السلميّ والعفويّ والمدنيّ، في مخاطبة سلطة قامعة، تُسبِّب انهياراتٍ في الاجتماع والعيش والاقتصاد والحياة اليومية. تسمية الحاصل بين التاريخين وبعدهما متنوّعة، واعتماد إحداها صعبٌ. أوقاتٌ تمرّ بعد البدايات، الحيوية والصادقة، تُسهِّل تحديد صفة، لعلّ «انتفاضة» أفضلها وأصدقها.

اللاحق على تلك الأسابيع معروفٌ، كالحاصل فيها. التحوّلات الضاربة في الانتفاضات كارثيّة. النتائج أعنف من حالٍ سابقةٍ على إحراق البوعزيزي جسده من أجل خلاصٍ ما، رغم أنّ ردّة فعله إزاء تصرّف الشرطيّة مليئة بغضب وقهر وانكسار وخيبة. التحليل مطلوبٌ، اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً وفكرياً. له اختصاصيون يتوغّلون فيه بأدوات علمٍ ومعرفة. عشرة أعوام لن تكون مجرّد رقمٍ، لأنّها فعل حياة، وإنْ يغلب عليهما (الفعل والحياة) اضطرابات وقلاقل ومخاوف وخراب. عشرة أعوام تستحق تنقيباً في الحاصل، يبتعد عن انفعال اللحظات الأولى، وتفسيرات اللاحق على تلك اللحظات، بما في اللاحق من عنفٍ وتصفيات وتخريب وتزوير وإقصاء. للسينما دورٌ يغلبُ أدوارَ فنونٍ وآداب. مع اشتعال النار في جسد البوعزيزي، تحضر الصورة، فوتوغرافيةً ومتحرّكة. الهواتف الخلوية حاضرة في الأمكنة والأزمنة المناسبة، المستمرّة إلى اليوم. صُور توثّق، فتنقل إلى العالم لحظات مدوّية عن سخط أناسٍ وغضبهم وصراخهم، والهواتف وحدها تُعينهم على إيصال ما يبغون قوله، بحراكٍ وصورة وقول. هواتف تُثير عنف سلطاتٍ تخشى توثيق جرائمها، رغم أنّ لها (السلطات) صُورها المبثوثة بطلب منها، لتأجيج خوفٍ وترهيبٍ عفويةٍ وإحلالٍ كوابيس بديلاً عن أحلامٍ طيّبة.

عفوية انتفاضات كهذه ترافقها، بشكل وثيق، عفوية تصويرٍ بهواتف يحملها كثيرون، لأنّها وسيلة وحيدة وأساسية لتواصل مع آخرين، رغم معوقات كثيرة.

> عفوية انتفاضات ترافقها بشكل وثيق عفوية تصوير بالهواتف

صُور تُصبح نواة بصرية لأفلامٍ تحتمل نعوتاً جمّة، وتشترك بتمكّنها من تأريخ اللحظة. الأفلام تتراكم عدداً، والغربلة النقدية تُناقش وتحاور وتُحلِّل، فيُصبح الأهم أقلّ من وفرةٍ، تبقى أساسية وضرورية لأرشفةٍ تصنع ذاكرة. أفلامٌ تحتاج إلى مزيدٍ من غربلة نقدية، فالوفرة غير قادرة على صنع سينما، بل تُسيء إليها، خصوصاً أنّ استغلال «الانتفاضات» يخترق السينما، مع تدفّق أموالٍ لإنتاج صُور، يُراد لها أنْ تكون سينمائيةً، فيغلب عليها التوثيق والتسجيل والشغل التلفزيوني. ذلك أنّ كلّ هَمٍّ سينمائي لصانعي هذا النمط مُغيّب، إزاء وفرة مال، ينضب في فتراتٍ، ويختفي في أخرى.

الغربلة النقدية لأفلام الأعوام العشرة تلك مطلوبة. الحاجة ماسّة إلى تنقيةٍ صارمةٍ، لأنّ تشويهاً كبيراً لاحقٌ بالسينما والانتفاضات معاً، بسبب «تشبيح» يتجاوز مرتكبوه كلّ أخلاقيّة في التعامل مع السينما والانتفاضات، لكسبٍ ماديّ فقط. مأزق فضح هؤلاء كامنٌ في ندْرة، بل في غياب كلّ «وثيقة» تدين، رغم كلام يصدر عن عارفين بتفاصيل، يوثق بهم وبكلامهم. تقديم مشروع «سينمائيّ» عن «ثورة» في بلدٍ عربي. سورية غالباً، أقلّه في الأعوام القليلة الماضية، ففيها حربٌ وخرابٌ وتهجير وإلغاء، يفوق كلّ عنفٍ مُمارس في دول أخرى، وفيها صناعة سينمائية، يغلب عليها الوثائقيّ. يؤدّي أحياناً إلى مسألةٍ من ثلاثٍ: إمّا اختفاء المشروع في مرحلة التنفيذ لأسباب جمّة؛ وإما تحقيق المشروع بأموالٍ أقلّ؛ وإما تحقيقه بأي طريقة، فتكون النتيجة كارثيّة بحقّ السينما، فلا الفيلم فيلم، ولا تنفيذ المشروع قابل لأنْ يكون نواة فيلم.

حالة كتلك تُسيء، أيضاً، إلى أفلامٍ تتمكّن من بلوغ مهرجانات دولية، وإنْ يُمارَس توقيت الاختيار، أحياناً، ضغطاً غير مباشر. في الأعوام الأولى تحديداً، يشعر الغرب غير الرسميّ برغبةٍ في معرفة الحاصل في تلك البلدان. يريد ما لا تبثّه نشرات الأخبار، وما لا تتداوله مؤسّسات حاكمة. لاحقاً، يستمرّ هذا وإنْ بدرجات اهتمام متفاوتة الحماسة. سورية في قلب الحدث، وأفلامٌ عدّة، تُصنع عنها وفيها ولها، تخترق حواجز وتحدّيات، فتحصل على مكانٍ لها في حيّز دولي، من مهرجانات («كانّ») وجوائز («أوسكار»). الطّامة الكبرى أنّ أصواتاً صحافية وإعلامية وأقلاماً نقدية عربية ترى في هذا تلبيةً لأجندات أو إشباعاً لغريزة فردية: إنْ تصنع فيلماً عن سورية مثلاً، تُفتح لك الأبواب. هذا قول غير دقيق، بل خاطئ. أفلامٌ سورية عن حربٍ وحشية تمتلك حساسية السينما ومفرداتها ومناخها ومتطلّباتها، فتُفتح لها أبوابٌ غربيّة. تُعرض في صالات أو لقاءات ثقافية وفنية واجتماعية، يتمّ اختيارها لمهرجان فئة أولى، ولغيرها من الفئات، يُحتفَل بصانعيها، من دون التغاضي عن جوهر سينمائيّ حاضرٍ فيها.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

«القاهرة منوّرة بناسها» وثوّارها في 10 فبراير 2011: لكن، أين السينما؟ (كريس هَندرُس/ Getty)

رؤساء أميركيون تُشرِّحهم السينما

أيكون دونالد ترامب شخصية درامية؟

يتوقّع السينمائي الأميركي آرون سوركين أنْ تشهد المرحلة المقبلة «تدفّقاً» في مشاريع، تتناول الرئيس الأميركي دونالد ترامب. في الوقت نفسه، هو غير عارفٍ مدى قدرة الفترة الرئاسية لترامب على أنْ توحي له كتابة عملٍ ما. لن يوضح أكثر من ذلك. يستعيد تقليداً ألك بالدوين للرئيس السابق في برنامج Saturday Night Live. يُشير إلى أنّ تأدية ممثل لدور الرئيس ستكون «محاكاة ساخرة». يُقدِّر أنّ صنّاع أي عملٍ «سيُظهرونه بصُور أرشيفية» (عدد خاص من مجلة «لو بوان . POP» الفرنسية، عن المسلسلات التلفزيونية والسلطة، نوفمبر/ تشرين الثاني . ديسمبر/ كانون الأول 2020).

أياً تكن آلية الاشتغال التي ستُعتَمد في تنفيذ أي مشروعٍ عنه، سينمائي أو تلفزيوني، يُثير دونالد ترامب حشريةَ بحثٍ في الجوانب المختلفة لشخصيته، التي يُمكن جعلها كاريكاتورية بسهولة، رغم المخاطر الكثيرة التي أشعلها في العالم، جرّاء تصرّفات وأقوال. شكله مُغرٍ لكتابةِ شخصيةٍ، تُضحك لشدّة إيحائها بالغباء، رغم ما تكتنزه من تفكيرٍ، يفرض عليها اتّباع مسالك محدّدة.

هذا كلّه مرهون بالمُقبل من الأيام. تناوله نابعٌ من الارتباط الوثيق بين السينما الأميركية ورؤساء أميركيين عديدين، ومن كيفية اشتغال السينما عليهم، في إنتاجات روائية تحديداً. الوثائقيات تذهب، غالباً، إلى اتّجاهات منبثقة من وقائع وحقائق يُفترض بها أنْ تُقدّمها. هذا يحضر أيضاً في الروائيات. لكنّ التحايل الوثائقي يُرافق الوقائع والحقائق إما لتأكيدها أو لدحضها أو للتلاعب فيها، بينما الروائي يستند، في الكتابة أساساً، إلى وقائع وحقائق، ينفضّ يستعيدون تاريخاً وذاكرة ليكشفوا ملامح حاضرٍ وتفاصيله. ينبشون في شخصيات الماضي عمّا يُكمل تصوّراتهم وقراءاتهم ومعارفهم. يصنعون من الصُور متتالياتٍ تلغي كلّ حدٍّ بين ماضٍ وراهن.

الأمثلة كثيرة. مناضلون يواجهون سلطة في السابق، يُصبحون في سينما الراهن مرايا يختلط فيها الأمس باليوم، كما في «محاكمة شيكاغو 7» (2020) لسوركين نفسه، بموارية سينمائية تنبش مخفيّاً في مرحلة حسّاسة من التاريخ الحديث لأميركا، والموارية تُصيب رئيساً (دوايت دي. أيزنهاور) ومرشّحين للرئاسة (1968)، بينهم ريتشارد نيكسون. رؤساء يُشرَّحون سينمائياً لكشف بعض المبطّن في شخصياتهم وأحوالهم. أوليفر ستون بارعٌ في هذا، وأحد أبرز نتاجات براعته كامنٌ في «نيكسون» (1995)، من دون تناسي «دبليو» (2008)، عن جورج بوش الابن. اختيار الرئيس أبراهام لينكولن (دانيال داي . لويس) في «لينكولن» (2012)، لستيفن سبيلبيرغ، يُعيد قراءة لحظة تاريخية في سيرة أميركا والعنصرية وحقوق السود، ماضياً وحاضراً.

هذه متعة تصنعها سينما غير آبهة بحدود. لا محرّمات تحول دون ذهابها بعيداً في تعرية شخصيةٍ عامة. لا معوقات تُفرَض عليها فتلتزم قواعد محدّدة. متعة تُثيرها سينما متحرّرة وصائبة في اشتغالاتها الفنية، من دون مقدّسات تريد فرضها.

فهل تُنتج السينما أفلاماً عن دونالد ترامب؟ إنْ تكن الإجابة «نعم»: هل يردّ ترامب عليها؟ وإنْ يردّ، فما الذي سيقوله سياسيٌ مثله، مشهورٌ بلجوئه الدائم إلى التغريدات، قبل منعه من استخدامها؟

نديم...

ستيفن سبيلبيرغ ودانيال داي لويس: حكاية لينكولن مع حقوق السود (كيفن وينتر/ Getty)

> متعة تصنعها سينما غير آبهة لا بحدود ولا بمحرّمات

عنها لاحقاً، لامتلاكه مساحة واسعة من حرية الاشتغال والتصرّف والتصوير، انتقاداً وسخرية وسجالات، اعتماداً على الصُور السينمائية.

للشخصيات العامة جماليات درامية، يتنبّه إليها مخرجون يمتلكون رؤية ومواقف وأفكاراً. يرون فيها منافذ سينمائية لقول أو تعبير لهم. يواجهون راهناً عبرها، أو

أفلام جديدة

■ Thor: Love And Thunder لتايكا وايتيتي، تمثيل ناتالي بورتمان (الصورة) وكريستيان بايل وكريس همسورث: في هذا الفيلم الجديد، تنقلب الأدوار، فترث جاين فوستر القوى الخارقة كلّها من إله الشمال. لكنّ الجميع يتساءلون: لماذا وكيف وإلى متى؟ سرّ غامض يحوم حول الأسئلة. هذا الجزء يأتي بعد Thor: Ragnarok، الذي أنجزه المخرج نفسه عام 2017.

■ Old لـ إم. نايت شامالان، تمثيل إليزا سْكانلَن (الصورة) وتوماسان ماكنزي وألكس وولف وفيكي كريبس: كعادته في تصوير عوالم غامضة، يصعب التنبّؤ بمصائر شخصياتها ومسارات أحداثها، يختار شامالان في جديده هذا شاطئاً غامضاً طبعاً، حيث يُحاصَر فيه أفرادٌ عديدون، سينعزلون عن العالم، وسيكتشفون تدريجياً أنّهم عاجزون عن النفاد منه، وأنّ سرّاً كبيراً يحيط بهم.

■ Monster Hunter لبول دبليو أس أندرسن، تمثيل ميلا جوفوفيتش (الصورة) وتوني جا ورون برلمان: أثناء تنفيذهم مهمّة بحث وسط الصحراء عن فرقة اختفت، يجد فريق بقيادة الكابتن ناتالي أرتيمس نفسه مرمياً في عالمٍ مجهول وغريب، تسكنه وحوشٌ خطرة وغامضة. للنجاة من هذا المأزق، تُقرّر ناتالي أنْ تُصبح قاتلة الوحوش، بمساعدة شخصٍ معروف باسم «الصيّاد».

■ Tout S’est Bien Passe لفرنسوا أوزون، تمثيل صوفي مارسو (الصورة) وأندره دوسوليه ولايتيتا كليمان: مقتبسٌ من رواية بالعنوان نفسه (2013) للكاتبة إيمانويل برنهايم، تروي فيها حكايتها مع مرض سرطانيّ تُصاب به عام 2017، وكيفية مواجهته، وذلك بعد اختفائها أعواماً عدّة إثر اكتشافها المرض الخبيث. كما أنّها تتوقّف عند اختبار الموت، إذْ ترى في قبوله مدخلاً إلى تواصل ذاتي مع نفسها.

■ Les Olympiades لجاك أوديار، تمثيل لوسي زانغ وماكيتا سامبا ونعومي ميرلان (الصورة): مقتبسٌ من ثلاث حكايات مُصوّرة (غرافيك)، للكاتب الأميركي أدريان تومين، يروي الفيلم حكاية ايميلي التي تلتقي كاميل المنجذبة إلى نورا، وهذه الأخيرة تلتقي، صدفة، آمبر. ثلاث شابات وشاب واحد، في سيرة تعكس جوانب من علاقاتهم وانفعالاتهم ويوميات عيشهم، فهم أصدقاء أحياناً، وعاشقون أحياناً اخرى، لكنّهم أصدقاء وعاشقون في آنٍ واحدٍ غالباً.